شهرية السينما

شارلى تشـــابلن وطريقته

كتب مستر رو برت لويس بحثاً طريفاً عن شارلى تشابلن رأينـــا أنه يحسن أن يطلع عليه القراء . قال : قص على شارلى تشابلن ذات مرة قصة عن جده الذى كان إسكافيـا . فقد كان شارلى يرى الشيخ عندما يشعر أحياناً بضيق نفسى ، قد اتخذ مكانه أمام منضدة عمله ، ثم أمسك بسكين وبقطعة من الجلد ، وبدأ فى صنع حذاء ؛ فلا يزال يعمل نهاره ، وليله إن وجد حاجة لذلك ، إلى أن يتم الحذاء كله ، ثم يقف رافعاً هـذا الحـذاء الذى هو من صنعـه ، وقد عادت إلى نفسه طمأنينتها ، وكأنه يقول : « لقد صنعت هذا ! هذا الحذاء ولا يمكن أحداً أن يأخـذ منى هذا العمل الذى أنشأته فأنا الآن راض » .

فشارلى يشعر دائماً أن من المصادر الكبرى لعدم رضا النفس الانسانية ، أن الكثير من الأعمـــال ، حتى أعمال بعض رجال الفن ، قد تجزأت إلى أجزاء كثيرة مختلفـة ؛ فلا تقع التبعة فى العمل بأكمله على عاتق شخص واحد ، ولايشعر أحد بالرضا للوصول إلى نتيجة حسنة . ولقد عبر عن هذا الاحســـاس فى شريطـه « الأزمان الحديثة » . ولست أعلم كيف يعمل لحل هذه المشكلة بالنسبة للعالم ، ولكنه وجد لها حلا بالنسبة لنفسه .

فشارلى عندما يعمل فى إخراج شريط سينمائى نراه يعمل حتى يتم الحذاء كله . ولقد نلت من عهد قريب شرف القيام بدور فى آخر شريط له ، واسمه « مسيو نردو » . وتمتعت فضلا عن ذلك بميزة أخرى ، هى أنى راقبت هـذا الشريط منذ ابتدأ ، وهو مجرد موضوع كتابى ، إلى أن مر بفترة أعداد الأدوار ، ثم بفترة الاخراج . فاذا كنت أعبر عن تقدير كبير لهذا الرجل العظيم الذى لا ينتهى نبوغه ، فقد اتهم بأنى متملق . فقد صار من العادات الحديثة فى عالم الملاهى اليوم أن أى مظهر للتأثر يعد تملقاً . ولكنى أريد أن أقيد ملاحظاتى عن الطريقة التى يعمل بها

شارلى ، ولماذا أنا أعتقد أنه نابغة ، ولماذا أعتقد فوق ذلك أن الأشرطة التى يخرجها عظيمة.

لقد دون شارلى أولا موضوع قصة مسيو فردو بنفسه ؛ وظل يعمل مدى سنتين فى كتابة تفصيلاتها ؛ فكان يضع الحوار ويصحح ويضيف و يمحو . وفى آخر تلك الفترة أخذ يمرن بعض الممثلين على الأدوار ، وهو فى الوقت نفسه يحاول تحسين القصة . ثم أخذ يضع رسوماً للاثنين وخمسين منظراً من مناظر القصة ، مما أدهش الصناع الذين كانوا يعملون معه . وفى الوقت نفسه كان يكتب الموسيقى المناسبة للشريط ، وكان كذلك يختار الأدوار والملابس ، ويعد برامج العمل ويدير القسم الادارى .

وفى داخل الاستوديو نرى شارلى يبدى نشاطاً لا مثيل له ، وتحمساً لا يلبث أن يعدى الحاضرين . فهو أول من يحضر فى الصباح ، مرتديا ملابس دوره ،وواضعاً الأصباغ الملائمة. وبينما هو فى انتظار حضور الآخرين ، نراه يصعد إلى المساند الخشبية ،ويشير برفع ما لا ضرورة له ، إلى أن يصل إلى مايبتغى .فاذا جاء الممثلون أدار المنظر ، ويحل مساعده فى مكانه ، على حين يذهب الممثل المدير إلى الآلة المصورة ليرى منها المنظر . ويقبل المصورون دائماً مقترحاته فى شأن الاضاءة والزوايا وغيرها،لأنها تنطوى دائماً على خيال غزير وحسن تصرف .

وفى أول يوم كنا نمثل فيه رفضت أن أشارك شارلى فى غدائه؛ فهو لا يأكل فى الظهر إلا واحدة من الطاطم.أما أنا فعبرت الشارع وتناولت غداء يناسب معدتى التى تقبل على الأكل كمعد الناس . ثم عدت بعد عشرين دقيقة فرأيت شارلى قد هضم الطاطم الذى أكله، وجلس على البيانو يؤلف موسيقى ريفية لمنظر صغير،نراه فيه يقطع الورود من أشجارها . فجلست، وظل هو يعزف من الألحان التى تخصص لكل آلة فى الأوركسترا بقدر ما يستطيع على البيانو ؛ ثم كان يغنى أو يشير إلى العازفين لآلات النفخ التى لا يستطيع عزف أدوارها بما يفعلون . ثم ينتقل إلى التقاط المناظر بعد الظهر . ولكنه قبل ذلك يرى ما صنع من أشرطة فى اليوم السابق ويفحصها بعناية وربما يعيد المنظر لكى يكون الشريط خيراً مما كان . وإذا كان هنالك بعض الوقت لملء الآلة المصورة بالأشرطة ، وهذا ما لايفعله شارلى ، فانه يأخذ فى تسلية الحضور ببعض الرقصات أو التقليدات ، كأن يقلد

شرلوك هولمز تقليداً فكاهيا .

وتشابلن كمدير عظيم جدا . ولقد تحدث إلىّ عن تمثيل الدور الذى أقوم به ، وهو دور موريس الطبيب البيطرى للقرية ، وصديق مسيو فردو ، فلم يفسر لى الدور بأكثر من قوله : « هو نوع من الناس الثقلاء الذين إذا ماتكلموا ظنوا أنهم يحاضرون. » ولم أسمع شارلى يقول مرة : « يجب أن تقول العبارة هكذا . » أو « قلها بأسرع من ذلك أو بأقل سرعة. » أو غير ذلك من التفاهات الخارجية التى يهتم بها الممثلون عادة .

وليس معنى ذلك أن طريقته فى الادارة تسير على وتيرة واحدة ؛ فقد رأيته مع أحد الهواة يريه كل حركة ، وكل نبرة فى الصوت ، لأنه اختار هذا الشخص لا لقدرته التمثيلية ، وإنما لصفة خاصة أرادها شارلى ورآها فيه . فى تلك اللحظة يعلم أن أسرع طريقة للوصول إلى نتيجة فى تلك الحالة هى التقليد . وعندما رأيته يوجه طفلا عمره خمس سنوات ، تبينت لماذا كان شريطه المسمى « الطفل » عجيباً . فهو يجعل من العمل لعبة للطفل ، فيطل برأسه فجأة من وراء الآلة المصورة على الطفل ، ويأتى أنواعاً من الحركات لكى يظل الطفل طبيعيا .

أجل ! إن شارلى يصنع الحذاء بأكمله ، فيكون المجموع وحدة فنية لأن جميع الأجزاء تأتى من مصدر واحد ؛ وكل قرار لم يكن نتيجة تأثير وقتى ، بل نتيجة لعلاقته بالفكرة الأساسية . ولقد رأيت شارلى ذات يوم يمر وهو يرفع أعقاب السجائر لكى يكون المسرح نظيفاً ، ففكرت ولماذا لا يفعل؟ فليس شئ صغيراً لديه ، إذ لا شئ كبير عليه .

شريط مسيو فردو

ظهر لشارلى تشابلن شريط حديث لم يجد من الاهتمام الكبير ما تجده أشرطته ، فكتب مستر هرمان ايزاكس ينتقده قائلا :

لست أعلم ما هو وجه الخطأ فى شريط «مسيو فردو». لقد كان فى هذا الشريط الأخير الذى أخرجه شارلى تشابلن شجاعة وخيال ، وفيه عنصر الهزل على ألطف صورة ، وفيه مشاعر عميقة ، كما يشعر بها فنان مرهف الحس نحو آلام العالم ، وعليم بالطرق والوسائل التى يعرب بها عن عدم

رضاه . لقد وضع شارلى تشابلن كل قلبه، والكثير من رأس ماله ، فى شريط «مسيو فردو »، وظل يعمل فى كتابة القصة مدى ثلاث سنوات، ويضع أدق التفصيلات على الورق دون أن يترك شيئاً للمصادفة .

ولكن هذه المصادفة قد حدثت وبالرغم مما فى قصة «مسيو فردو » من المواقف الممتعة ، فانها أخفقت فى الوصول إلى النجاح الكامل ، فما هو السبب؟

إن بطل تشابلن كاتب فى مصرف تعطل عن العمل ، فأخذ يقتل بعض النساء العجائز اللاتى يتصل بهن ، وذلك لكى يستطيع الانفاق على زوجة مريضة وطفل . وهو على ما اتخذه من مهنة غير مشروعة يمثل كل فضائل الطبقات المتوسطة ؛ فلا هو يدخن ولا يشرب الخمر ، ولا يستلذ برحلاته إلى فراش النساء الأخريات . وإذا كان يعيش فى عالم تحيا فيه الجرائم الكبرى وراء قناع من الفضائل الصغيرة ، فهو يظل عدة سنوات قبل أن تكتشف جرائمه . فاذا قبض عليه وقدم للمحاكمة ، دافع عن نفسه بما فى الأخلاق التى ترى زمن الحرب من متناقضات ، وهو يقول : « ألم يشجع العالم ذلك الذى يقتل بالجملة ؟ إننى إلى جانب الذين يقتلون بالجملة لا أعد إلا هاوياً . . . فقتل شخص واحد يجعل من القاتل مجرماً شريراً ، وقتل الملايين يجعل من القاتل بطلا فكأن العدد يحيطه بالقداسة . » ولاتتأثر المحكمة بهذا الدفاع ، ويساق مسيو فردو ليلقى حتفه .

فالمخرج الهزلى قد وصف قصته فى شريط هو سلسلة من الحركات التنوعية التى تدور حول فكرة القتل. فضحايا هذا القاتل للنساء كالقصة الأصلية من الحياة التى أوحت إليه موضوعه ، وهى قصة لندرو المجرم الفرنسى الذى كان يقتل النساء اللاتى يتصل بهن . هؤلاء الضحايا منتشرات فى سائر أنحاء فرنسا ، فهو يتنقل فى أسفاره حائراً بينهن لكى يجد الفرصة الملائمة ، مع زياراته القصيرة التى يقيم فيها بين أسفاره فى أحضان أسرته ، مما ينوع فى الحوادث المماثلة التى يحدث فيها القتل. ومن أبدع المواقف الهزلية فى هذا الشريط موقفه مع امرأة قوية — مارتا ريه — التى تأبى أن تقتل . وفى هذا الموقف راحة قليلة حين يجرى الاثنان أحدهما وراء الآخر ، وكل يحاول بأسلوبه الفكه أن يغلب الآخر .

والواقع أن هذا الكاتب الطريد ،

الذى يتخذ عمل القتل وتوزيع الفوائد التى يجنيها ، محتفظاً فى ذلك بكل الوقار الذى كان يلازم عمله السابق، كان مادة كبيرة للضحك . وهذا ضرب من الافصاح بالاشارة ، التى يتفوق فيها تشابلن ، وهو يسدد ضرباته التى تضحك الجمهور بدقة الصانع الماهر ؛ وبذلك تجد النظارة يشعرون بمتعة التفرج عليه والتأثر بعمله .

على أنه بالرغم من كل مافى فكرة القصة من ظرف و بريق ، وما فيها من مواقف هزلية ، لم يبلغ شريط «مسيو فردو » الدرجة المعروفة فى النجاح . وليس السبب فى ذلك ،كما يقول البعض، هو كثرة ما فيها من موضوع أخلاقى ، بل لعل السبب هو عدم الوصول بهذا الموضوع الأخلاقى إلى غايته . ولقد أبدى شارلى تشابلن المغزى الذى يرمى إليه فى عبارة قصيرة فى الفصول الأخيرة ، حين يتكلم فردو بالنيابة عن مؤلفه . ولكن هذا المغزى لا يبدو واضحاً فى رسم شخصية فردو نفسه ؛ فلم يتضح هل القاتل شخصية هزلية ، أو هو رجل صغير دفعته الأقدار فى تيار الأخلاق المعقد فى زمنه ، أو هو رجل حانق على المجتمع الذى لفظه ؛ فهذا الغموض لابد من جلائه . فاننا إذا كنا نضحك لفعال رجل هو عادة كريه ، كما هو شأن القاتل ، فيجب أن نعرف نوع الضحك الذى يثار فى نفوسنا : أهو ضحك أطلقت فيه النفس على سجيتها ، أم هو ضحك ممزوج بالدموع ، أم هو ضحك تشوبه السخرية ؟

مثل هذه المشكلة لم تعرض من قبل فى الأشرطة الكبيرة التى وضعها تشابلن فى الماضى ، وإن كانت تحتوى على الكثير من روح الاحتجاج، كما نرى فى هذا الشريط . ثم إن فكرة تشابلن عن الرجل الشرير كانت واضحة ، بحيث كانت احتجاجاته على عدم المساواة تبدو بارزة من شخصية الشرير نفسه ؛ فكنا نحس باخلاص ذلك المهرج فى سراويله الواسعة ، ونضحك من حركاته فى حين نؤمن بمشاعره ، ونمزج الدموع بضحكاتنا . أما مسيو فردو فلا نحس معه بشئ من الثبات ، بل هو على العكس يتركنا فى حيرة غير راضين .